كتبها مايكل ليدجر-لوماس ونشرتها "حاكوبان" في ٣١/١/٢٠٢٦.

يجادل تاريخ حديث عن البنادق والإمبراطورية بأن أوروبا في بدايات العصر الحديث شكّلت أصول عصر فريد في إجرامه. لكن العالم الذي يصفه لا يختلف كثيراً عن عالمنا، وفهم فظائعه يتطلب حكماً أخلاقياً لا مجرد حسابات رقمية.

كان أحد أوائل الأوروبيين الذين حاولوا خوض تجارة العبيد فاشلاً فيها فشلاً ذريعاً. ففي عام 1510، رسا المغامر البرتغالي دوم فرانسيسكو دي ألميدا عند رأس الرجاء الصالح وحاول أسر بعض أفراد شعب الخويخوي. كان مخطئاً في ثقته بقوته النارية. فالبنادق البدائية (الأركويبوس) التي حملها رجاله كانت ثقيلة إلى درجة أنها احتاجت إلى دعامة للتصويب، وإلى ضحايا متعاونين يقفون ليتلقوا الطلقات. كما أطفأت الأمطار الغزيرة الفتائل المشتعلة اللازمة لإطلاقها. وعندما أمطر مقاتلو الخويخوي قوات دي ألميدا بسهام مسمومة، انسحب رجاله سريعاً.

يروي المؤرخ كليفتون كريس هذه القصة في بدايات كتابه "عصر القتل"، ملحمته القاتمة الواسعة عن كيفية تشكّل الحداثة، تحديداً لأنها كانت حالة غير نمطية مقارنة بالقرون التالية. كانت حماقة دي ألميدا بمثابة المشهد الافتتاحي لما يسميه كريس "المورتيسين" - قرن طويل جداً (1750-1900) أحدث فيه التصنيع الغربي للأسلحة ثورة في سهولة قتل البشر بعضهم بعضاً، فأعاد تشكيل العالم وفق مصالحه. لم تعد القوة والثروة تتدفق من العبقرية أو القيم، بل من فوهة البندقية.

نحن اليوم غارقون في تواريخ حديثة ذات نزعة يسارية لكنها متشائمة عن الحداثة. تقلب هذه السرديات الغائية التي رسمها سابقاً هـ. ج. ويلز وخلفاؤه من مؤرخي الثقافة الشعبية. فإذا كان للتاريخ العالمي نقطة نهاية في هذه الروايات، فهي ليست السلام والازدهار والاتحاد الدولي، بل المحيطات الحارة واندفاعات الهيمنة النرجسية المتشنجة. عاد المؤرخون الأكاديميون مرة أخرى إلى فهم الرأسمالية كفرع من الإمبريالية: ليست مذهباً اقتصادياً بقدر ما هي

"ثورة عسكرية-تجارية" فُرضت بعنف على الآخرين في الداخل والخارج. أصبحت الجيوش وسفن العبيد حاضرة في هذه القصة بقدر حضور المصانع أو المختبرات، والعمل القسري بقدر الأجهزة الموفرة للجهد. كما عزز تبني المؤرخين لمفهوم الأنثروبوسين ميلهم إلى تصوير صعود الحضارة الغربية كطريق إلى الخراب، طريق تطلّب حرقاً متسارعاً للوقود الأحفوري وهو الآن يزعزع المناخ الذي تعتمد عليه حياة البشر.

لا يكتفي "عصر القتل" بإضافة مرثية أخرى إلى هذه السرديات الكبرى، بل يقترح طريقة جديدة ومروعة لربطها معاً. فهو يجادل بأن التحولات السريعة والحاسمة في النزوع إلى القتل والقدرة عليه غذّت الرأسمالية والإمبريالية وتغير المناخ. بدأ هذا الديناميك في أوروبا الغربية، وخاصة في بريطانيا، لكنه سرعان ما انتشر عالمياً. ينفي كريس وجود منطق خفي أو تبرير للمجازر الحديثة. منظوره المفضل هو منظور ملاك فالتر بنيامين، الذي ينظر إلى الوراء نحو "الحطام المتراكم" للقرون الماضية. ومع ذلك، يقترح أن هذا المسار مرّ بعدة مراحل دامية وأن عمله كان قد أُنجز تقريباً مع مطلع القرن العشرين.

عند فوهة البندقية

في البدء كانت البندقية ذات الفتيل الحجري. فمن خلال الاستثمار في صناعة الأسلحة، واحتكار تصنيع البارود عالي الجودة، وتسليح أنفسهم حتى الأسنان ببنادق فلنتلوك أكثر موثوقية من أركويبوس دي ألميدا، جهّز الهولنديون - ثم البريطانيون - أنفسهم لأشكال مبكرة من التراكم البدائي. كانت بنادق الفلنتلوك التي تعمل في الأجواء الماطرة أكثر اعتمادية من الأسلحة ذات الفتيل القديمة، وساعدت الغزاة على الاستيلاء على التوابل الاستوائية وتنظيم استعباد أعداد هائلة من الأفارقة بعنف. وفي كثير من المناطق التي استعمرها الأوروبيون، تحولت الفوضى الافتراسية تدريجياً إلى إنتاج: سيطرة منظمة لكنها لا تقل عنفاً على عمال محليين ومستوردين لإنتاج محاصيل نقدية أو سلع استوائية للتصدير. فأصبحت جامايكا، التي كانت محطة للقراصنة، اقتصاداً زراعياً قائماً على المزارع حيث كان الأفارقة المستعبدون يكدحون لإنتاج السكر الذي أدمنه الأوروبيون.

لم تكن البنادق مجرد أدوات لاستخراج السلع والبشر من أماكن أخرى. يقترح كريس أنها كانت سلعة حيوية في تكثيف شبكات التجارة. يصف بشدة رغبة غير الأوروبيين في اقتناء البنادق، التي منحتهم تفوقاً - نفسياً بقدر ما هو مادي - في

صراعاتهم مع خصوم محليين. ويقدّر أن المصنعين والتجار الغربيين صدّروا نحو نصف مليار بندقية بين منتصف القرن الثامن عشر ومطلع القرن العشرين، إلى جانب ما يكفي من البارود لقتل كل إنسان كان حياً آنذاك. إحدى ذروات هذه التجارة كانت تعبيراً مشوهاً عن "عائد السلام": فبعد هزيمة نابليون بونابرت في واترلو، خفّضت الدول الأوروبية مخزوناتها وباعت الأسلحة لأمريكا اللاتينية وأفريقيا.

أينما ذهبت البنادق، قلبت المجتمعات أوضاعها للحصول عليها وأحدثت بها خراباً. قراصنة إندونيسيون مسلحون تبادلوا الأسرى مقابل منتجات الغابات مع قبائل نائية في بورنيو كانت تريدهم للقرابين البشرية. في أمريكا الشمالية، أدى تهريب السلاح إلى "إبادة بيئية": الإبادة المتواصلة للحيوانات ذات الفراء، بدءاً من الساحل الشرقي باتجاه الغرب، حيث استخدمت الأمم الأولى البنادق البريطانية لقتل القنادس التي يمكن استبدال جلودها بمزيد من البنادق. سيل البنادق مكّن شعوباً مثل الإيروكوا أو السيو من التحول إلى دول استعباد أجبرت الأسرى على العمل في تجهيز الفراء للتجارة.

ورغم اتساع نطاق تحليل كريس، فإنه يقدم وصفاً مؤثراً بشكل خاص لكيفية إفساد البنادق لأفريقيا، حيث لم تكن الرأسمالية المعسكرة مجرد شيء فرضه الأوروبيون على سكان أصليين سلبيين. على الساحل الغربي، تحالف الأوروبيون مع زعماء حرب استخدموا البنادق لتشديد سيطرتهم على السواحل ومصبات الأنهار، محتكرين تدفق السلع والبشر من الداخل. يرسم صورة مروعة لدول مفترسة مثل إمبراطورية أويو ومملكة داهومي، حيث راكم الحكام حلياً أوروبية بينما كانوا يستعبدون جيرانهم. وفي أماكن أخرى، يرسم كريس خرائط لاقتصادات استعباد مرعبة وإن كانت أقل شهرة: "مصريون عنصريون بشراسة" حوّلوا السودان إلى سوق عبيد ضخم، بينما خرجت قوافل تجار مسلحين بشدة من الخليج العربي من زنجبار بحثاً عن العاج والبشر.

ما هو أكثر العصور دموية في التاريخ؟ (ترجمة)

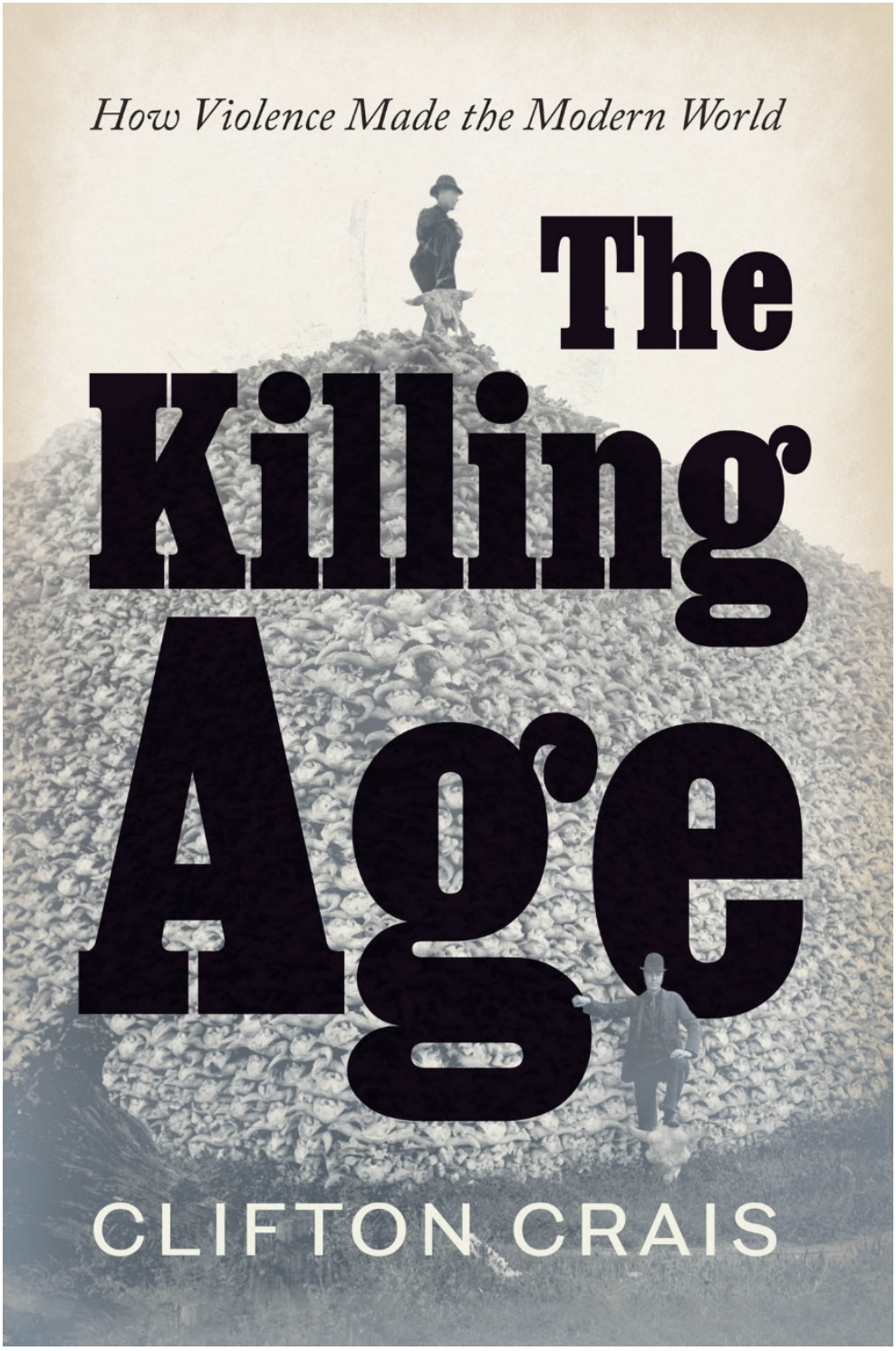

"اقتصادات غير أخلاقية"

العلاقات التي قامت عليها هذه "الاقتصادات غير الأخلاقية" لم تكن مستقرة أو متكافئة. يصف كريس الأوروبيين في الخارج بشكل استفزازي بأنهم "زعماء حرب"، ليشير إلى أن المغامرين الأحرار، لا الجيوش النظامية، كانوا في طليعة التوسع العنيف للرأسمالية. لكن الشركات الممنوحة امتيازات ملكية، من خليج هدسون في كندا إلى نهر النيجر، اعتمدت على الحيل القانونية والمالية بقدر اعتمادها على القوة. استعاروا سلطة الدولة وغالباً ما نشروا رأس مال أكبر مما جمعوه. كانت شركة الهند الشرقية البريطانية، التي حملت "سيفاً في يد ودفتر حسابات في الأخرى" وهي تغزو مساحات شاسعة من شبه القارة الهندية، نموذجاً لهذا النهج.

كان الأوروبيون متساهلين على نحو لافت في تسليم البنادق التي كان يفترض أن تمنحهم تفوقاً حاسماً، لأنهم أتقنوا تكنولوجيا هيمنة أكثر خبثاً: الدَّين. الزعماء الذين تاجروا معهم عجزوا عن سداد ثمن البنادق عندما اختفت الحيوانات ذات الفراء من أراضيهم أو عندما تسلحت الشعوب التي هاجموها بدورها. حينها انقضّ الأوروبيون على مدينيهم. في أمريكا الشمالية طالبوا بالتنازل عن الأراضي؛ وفي الهند طالبوا بالسيطرة على عائدات الضرائب. بدلاً من السلع، أخذوا السيادة.

القتل من أجل رأس المال، في رأي كريس، لم يُستبدل بالتصنيع القائم على الوقود الأحفوري، بل جعله ممكناً في المقام الأول. ممارسات تبدو الآن بدائية - مثل الذبح الجماعي للحيوانات أو الأسر العنيف للبشر - زلّقت عجلات الحداثة الصناعية. حرب استمرت قرناً على الأفيال الأفريقية دعمت تطوير مدن صناعية مثل آيفوريتون في كونيتيكت، التي صنعت مفاتيح البيانو للصالونات الأمريكية. كانت نيو بيدفورد في ماساتشوستس قاعدة لأسطول صيد الحيتان الأمريكي قبل أن تصبح مركزاً صناعياً. استُبدلت الغلايات بالمغازل، وشحم الحيتان بالقطن، لكن العنف بقي ثابتاً: قطن نيو بيدفورد جاء من الجنوب، إمبراطورية عبودية داخل الجمهورية كان قادتها يأملون في دفع حدودها حتى المحيط الهادئ. الحرب الأهلية الأمريكية أحبطت تلك الأحلام. وعندما انتهت، وجّه الأمريكيون بنادقهم نحو جاموس السهول الكبرى، فخفضوا أعداده من نحو سبعين مليوناً إلى بضع مئات خلال عقود. جلودها المتينة، التي لم تكن

مفيدة كثيراً في صناعة الجلود، تبين أنها تصنع أحزمة ممتازة للآلات، مما ساعد على زيادة إنتاج المحركات البخارية.

روابط كهذه تدفع كريس إلى تقديم البندقية كإشارة البداية للاحترار العالمي الناتج عن النشاط البشري. يعترف بأن العلماء يختلفون حول متى أصبح تغير المناخ بفعل الإنسان محسوساً وضاراً. الغبار البركاني ربما برّد مناخ منتصف القرن التاسع عشر، مغطياً أثر انبعاثات المصانع. ومع ذلك، يعتقد بعض الباحثين أن تغير المناخ البشري فاقم موجات الجفاف الشديدة في أواخر القرن التاسع عشر بأمريكا الشمالية وعطّل أنظمة الرياح الموسمية في آسيا. على خطى مايك ديفيس، يجادل كريس بأن سوء إدارة المسؤولين البريطانيين المتعصبين حوّل فشل المحاصيل في الهند إلى مجاعات. ويضيف الثلاثين إلى الستين مليون شخص الذين "ماتوا بلا داعٍ" جوعاً في أواخر القرن التاسع عشر في الهند والصين إلى فاتورته الدموية.

ليست كل روابط كريس بين الرأسمالية والوفيات الزائدة من الجوع والمرض بهذا القدر من الافتراض. فالافتراس، وأنظمة الإنتاج الاستغلالية التي تلته، كان لها غالباً آثار فورية وخطيرة على البيئات المحلية. إبادة جاموس أمريكا الشمالية أدت إلى تجويع سكان السهول الأصليين الذين اعتمدوا عليه - وكان ذلك مقصوداً. لكن كوارث أخرى كانت غير مقصودة. أينما صيدت الأفيال الأفريقية، عادت الأشجار والشجيرات للنمو، ما وفر موطناً لذبابة التسي تسي الحاملة لمرض النوم القاتل الذي قتل ملايين البشر والخيول وحيوانات المزارع في أنحاء أفريقيا. شبكة قنوات الري التي حفرها خديوي مصر ضمن خطته لإجبار الفلاحين على زراعة القطن للتصدير تحولت إلى بيئة مثالية للبعوض والقواقع: مات الملايين بالملاريا والبلهارسيا.

أكثر الأوقات دموية على الإطلاق؟

هذه الرأسمالية المسلحة قاتلة إلى حد يصعب معه فهم لماذا يوقف كريس فجأة زمن "المورتيسين" نحو عام 1900. جوابه، paradoxically، يكمن في التوسع الرسمي للإمبراطوريات الأوروبية. هذا المسار استمر في إطلاق عنف هائل، خاصة لأنه كان مدفوعاً أحياناً بقراصنة يمتلكون أسلحة أحدث وأفضل. سيسيل رودس نحت إقطاعيته في جنوب أفريقيا ببنادق مارتيني-هنري ورشاشات ماكسيم، التي حصدت أفواج النديبلي. ومع ذلك، فضلت الإمبريالية الجديدة في أواخر القرن التاسع عشر الاستقرار على الفوضى المربحة، وسعت لاحتكار العنف.

حظر تصدير الأسلحة الذي اتفقت عليه القوى الإمبريالية في مؤتمر بروكسل عام 1890 خفف الحروب الداخلية في أفريقيا؛ والحدود السياسية التي رسمها المستعمرون استمرت إلى حد كبير بعد الاستقلال حتى اليوم. كما ندم الأوروبيون على قرارهم المربح بتسليح متمردي تايبينغ ضد أسرة تشينغ في الصين. رغم أنهم كانوا قد أهانوا تشينغ ونهبوا بكين، فقد ساعدوهم لاحقاً في القضاء على المتمردين.

لم يكن نزع السلاح هذا عملاً خيرياً. في الولايات المتحدة، حظر بيع الأسلحة للسكان الأصليين عزز قوة المستوطنين البيض المسلحين، بينما استخدم البيض في الجنوب التعديل الثاني للاحتفاظ بالأسلحة التي حُرِم منها العبيد المحررون. ومع ذلك، يخلص كريس إلى أن عصر القتل كان يقترب من نهايته. هذا الادعاء يبدو متوتراً أمام اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبما أنه يركز أساساً على مناوشات زعماء الحرب داخل أو على هوامش الإمبراطوريات، فليس لديه الكثير ليقوله عن المواجهة التقليدية بين أنظمة التحالفات السلالية. الحرب تهمه أساساً لأنها تبعتها موجة جديدة من فائض السلاح إلى العالم خارج أوروبا. ويتعامل مع الحرب العالمية الثانية بطريقة مشابهة، ملاحظاً إياها أساساً لتأكيد عقود تجارة السلاح التي تلتها.

"مورتيسين" يشمل صيد الأفيال أو "الإبادة البحرية" للحيتان لكنه يستبعد السوم أو ستالينغراد أو داخاو، يبدو اصطناعياً بشكل خطير. في الحكم على "عصر القتل"، نحتاج إلى التمييز بين اتساع الطاقة التي يرسم بها الوفيات الزائدة وبين حججه حول التقسيم الزمني والسببية وبالتالي المسؤولية. لا يبدو كريس متأكداً مما إذا كانت الرغبة في القتل أساسية في البشر أم نزعة تاريخية جديدة اختطفت الغرب ثم ابتلعت العالم.

أحياناً يقدم تعريفاً أوغسطينياً للإنسان بوصفه كائناً يسعى لاغتصاب ما لدى الآخرين - فرضية واسعة بما يكفي لتفسير معظم الأشكال السياسية والاجتماعية في التاريخ. لكنه يريد أيضاً تأريخ سقوطنا بدقة: الأوروبيون في بدايات العصر الحديث، كما يقول، اختاروا العنف قبل أن يضحوا أو يستميلوا بقية الكوكب.

لو كان الكتاب أكثر اتساقاً في نظرته التشاؤمية للطبيعة البشرية، لوجب رؤية الكثير مما يصفه كتسارع لعمليات طبيعية بدلاً من جنون إجرامي من "تدمير كوكبي صارخ". صيادو الحيتان الذين قتلوا حيتان العنبر من أجل الزيت اللازم لإضاءة المنازل والمصانع لم يكونوا مختلفين كثيراً عن السكان الأصليين في أستراليا الذين صادوا الحيوانات

الضخمة حتى الانقراض. هل ينبغي أن "نحزن جماعياً على ما فعلناه" إذا كان هذا الدمار جزءاً من كوننا بشراً؟ ربما السؤال ليس هل نحزن، بل هل حزننا يستند إلى الأدلة التاريخية أم إلى سياساتنا أو روحانيتنا.

حسابات الذبح

ربما يكون الحجم هو ما يميز جرائم "المورتيسين" الكوكبية عن روتين فظائع التجربة البشرية. "محركات التاريخ التي بدأت قبل قرون تسارعت فجأة وخرجت عن السيطرة"، يكتب كريس، مستحضراً "عاصفة". يستخدم مجموعة مذهلة من الإحصاءات لدعم هذه الاستعارات. مراراً وتكراراً يسعى لإصابة القارئ بالذهول عبر كمية الأسلحة المتداولة. الحجم مهم، كما يقول، لأن هذه الأسلحة لم تمثل تغيراً نوعياً في الفتك. معظمها كان بنادق فلنتلوك - "تويوتا كورولا" الأسلحة النارية، أو بالأحرى "إيه كي-47" - قادرة على إحداث جروح بشعة لكنها ليست سريعة الإطلاق ولا سهلة التصويب. كثير من المشترين الأصليين فضلوا تزيينها على استخدامها. ومع ذلك، ألا بد أن نصف مليار بندقية صُدّرت كان لها أثر ضخم على صانعيها ومستخدميها؟

نحتاج إلى النظر في الحجم النسبي لا المطلق. في عام 1790 لم تمثل البنادق سوى 0.15 بالمئة من الصادرات البريطانية إلى بقية العالم. الحجة حول ضرورة صناعة السلاح للتصنيع تقوم على أمثلة إيحائية مثل سلالة مصرفيي لويدز الذين بدأوا بالأسلحة قبل الانتقال للتجارة والتمويل. الإيحاء - أن صناعة السلاح كانت جزءاً مبتكراً من الاقتصاد لا مهماً في المطلق - يشبه حججاً في دراسات تجارة العبيد عبر الأطلسي. رغم فظاعتها، يعترف كريس أن العبودية لا يمكن القول بأكثر من أنها كان لها "آثار كلية كبيرة" على الثورة الصناعية البريطانية. مكاسب الكفاءة في مزارع جزر الهند الغربية جرت بالتوازي مع، ولم تسبق، تلك في الصناعة المحلية؛ السكر المزروع بعمل العبيد غذّى عمال المصانع لكنه لا يفسر زيادات الإنتاجية في الصناعات التي عملوا فيها. البندقية أقل "مركز الزلزال" للإمبريالية التجارية وأكثر رمزها إيحاءً.

في الواقع، يخفي بين إحصاءاته ملاحظة مهمة: الغالبية العظمى من الأسلحة الأوروبية لم تغادر أوروبا. خلال القرن الثامن عشر لم يُصدَّر سوى 15 بالمئة من إنتاج بريطانيا؛ والباقي ذهب لمخزونات قواتها المسلحة. هل كانت البنادق حاسمة فعلاً في تحول العالم إذا كان معظمها بقي في مستودعات داخلية أو استُخدم أساساً في ساحات القتال

الأوروبية بدلاً من أيدي زعماء الحرب في أفريقيا وآسيا؟

أعداد القتلى الهائلة التي يجمعها كريس تجعل هذه الانتقادات تبدو تدقيقاً تافهاً. وهي بلا شك تقنع القراء برفض رؤية أوروبية للقرن التاسع عشر الطويل كفترة استقرار بين حربين دمويتين كبيرتين. قبل إخماد تمرد تيانجين قُتل بين عشرين وثلاثين مليون صيني، عدد يفوق كل قتلى الحرب العالمية الأولى. لكن الضخامة لا تعني الأهمية، وليست كل الفظائع ضخمة. كريس يضخم باستمرار أعداد القتلى في الحروب، كأن "المورتيسين" مجموع عمود في جدول بيانات. يعترف بعجزه عن حساب عدد الأفارقة الذين ماتوا في حروب بدأها الغرباء قبل أن يقترح أن "ربما مئات الملايين" ماتوا. هذا التلويح غير مقنع. شركة جنوب أفريقيا البريطانية التابعة لسيسيل رودس خاضت حروب غزو وتمرد تذكّر بجرائم اليوم، بما في ذلك تفجير نساء وأطفال احتموا بالكهوف. ومع ذلك حسب المؤرخ ويليام بينارت أن هذه الحملات قتلت نحو اثني عشر ألف شخص فقط.

يبدو فظيعاً كتابة "فقط" في هذا السياق، لكن تذبذب الأرقام الضخمة التي يستخدمها كريس يترك القارئ حائراً في معايرة استجابته العاطفية. في ملحق، يخبرنا أن نحو 228 مليون شخص ربما ماتوا بلا داعٍ في أفريقيا وآسيا والأمريكيتين خلال "المورتيسين". وفق تقديرات أكثر تحفظاً ربما كان العدد مئة مليون فقط. ثم يتساءل إن كان يمكن رفعه إلى ثلاثمئة مليون بإضافة مناطق أخرى. إذا افترضنا أن متوسط وزن الإنسان تسعون رطلاً، فإن كتلة بشرية تصل إلى سبعة وعشرين مليار رطل اختفت من العالم خلال "المورتيسين". أخجل أن أقول إن هذا الرقم لم يحرّك فيّ أي شعور. ولماذا يفعل؟ لا جاذبية أخلاقية للوزن الفيزيائي.

كوارث بشرية

يقتبس "عصر القتل" عبارة إدوارد غيبون أن مهنة المؤرخ هي "الحساب الحزين للكوارث البشرية". يفي الكتاب بهذا الوعد، لكنه يفتقر إلى وضوح غيبون في تتبع المسؤولية الفردية أو الجماعية عن الكوارث. معظم "الوفيات غير الضرورية" لم تكن أفعال قتل مباشرة، بل نتيجة مجاعات أو أمراض أعقبت حروباً أو تغييرات اقتصادية قاسية أو مجرد طقس سيئ.

من الغريب استدعاء الأنثروبوسين لتضخيم حصيلة الوفيات، في وقت لم يكن أحد تقريباً يدرك أن استهلاك الوقود الأحفوري يعبث بالمناخ. يشير كريس إلى علماء أواخر القرن التاسع عشر الذين افترضوا علاقة بين غاز الكربون وارتفاع الحرارة، لكن هذا لا يكفي لإثبات "إنكار" مذنب للأسباب أو الآثار.

على أي حال، يصعب وصف الأنثروبوسين كجريمة - أو حتى خطأ - حين أن كل من يقرأ هذه الكلمات مدين بمستوى معيشته له. من السهل الندم على تحويل الأفيال إلى مفاتيح بيانو أو الجاموس إلى "عباءات" لأثرياء نيويورك أو خيار البحر إلى منشطات جنسية، لكن من الصعب تخيل الاستغناء عن إضاءة الكيروسين.

هناك فجوة أخلاقية - أو ربما نفسية - في قلب الكتاب. لا يقدم لنا تفسيراً مقنعاً لماذا شعر هذا العدد من الناس بإمكانية القتل في تلك الفترة أو كيف كان شعورهم. مثل كثير من الكتب التاريخية التجارية، بنيته مغامراتية لا تحليلية: كل فصل يقدم مجموعة جديدة من الأشرار ويتتبع مساراتهم. معظمهم فاعلون لا مفكرون، انتهازيون غريزيون وعنيفون مثل رودس - أو نظراؤه في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية - اندفعوا إلى العالم ورؤوسهم منحنية وأذرعهم المسلحة ممدودة.

من المفيد تذكّر أن الناس لا يملكون دائماً مبررات معقدة للأذى الذي يفعلونه. بانوراما كريس الجهنمية من الأنانية والجشع البدائي تصحح كثيراً من الحسابات الأكاديمية للإمبريالية الأوروبية والاستعمار الاستيطاني، التي تراها ناتجة عن تحولات فكرية عميقة. بالنسبة لكريس، لم يحتج الأوروبيون إلى أفكار لتبرير شهواتهم القاسية. التحول الكبير كان في الأدوات التي امتلكوها لتحقيق أحلامهم الفظة بالتعاظم الذاتي. ماديته الصارمة تتماشى مع أعمال حديثة ترى الإمبريالية امتداداً لإرادة قديمة للربح.

مع ذلك، كانت أفعال رجاله المسلحين محاطة بسياق أخلاقي وفكري أكثر سماكة مما يعرضه. لا يمكن فهم جرائمهم دون النظر في شبكة التأمل الديني والفكر القانوني والتشريعات التي بررت استخدام العنف من قبل الأوروبيين ضد غيرهم، وأحياناً كبحته. يتساءل كريس بسذاجة لماذا لم يحتج مزيد من الناس على عالم حديث كان يسير "بخطأ عميق". الجواب قد يكون أن كثيرين اعتبروا أنفسهم على صواب إلى حد كبير.

ما هو أكثر العصور دموية في التاريخ؟ (ترجمة)

عندما تأمل أوغسطين في ماهية الدولة، اقتبس قول القرصان الذي أسره الإسكندر الأكبر: "أنا أقاتل بسفينة صغيرة فيسموننني قرصاناً؛ وأنت تقاتل بأسطول كبير فيسمونك قائداً." يمكن اعتبار دول كثيرة عصابات لصوص؛ وكثير من اللصوص، حين يجمعون قوة للسيطرة على أقاليم وإخضاع سكانها، يدّعون أنهم أقاموا ممالك. "عصر القتل" يصوّر ببرودة كيف تنزلق الفروق بين زعماء الحرب ورجال الدولة، بين الإمبراطوريات وعصابات اللصوص، عندما ننظر إلى السلب المنظم والقتل الجماعي. إنه عالم ليس بعيداً عن عالمنا، ولهذا لن يترسخ مصطلح "المورتيسين" كتسمية لحقبة تاريخية متميزة. كان أوغسطين يعتقد أن الدولة الحقيقية يجب أن تقوم على "العدالة"، مبدأ لم يستمده من الماضي بل طبّقه على تأمله فيه. نحن بحاجة إلى مبدأ كهذا لفهم الوقائع المروعة والمربكة التي يضعها أمامنا "عصر القتل".

الكاتب: رمان الثقافية